المسلمون في الشام، ما هُوِيَّتهم، وما جذورهم؟

إن الذين حرروا الشام وأعادوه إلى الجزيرة العربية عربٌ مسلمون من الحجاز واليمن ونجد، وبعد الفتح أقام منهم مَنْ أقام، وعاد منهم مَنْ عاد إلى مسقط رأسه، أو تابع رحلة الفتح إلى بلاد أخرى، من مصر، والمغرب العربي، والأندلس.

فهل بقيت بلاد الشام خالية من السكان بعد رحيل الروم، وسكنها العربُ الفاتحون؟.

الجواب: إن نصوص المعاهدات التي كتبها الفاتحون لسكان البلاد المفتوحة تدلُّ على استمرار بقاء السكان في بيوتهم، وإن الذين رحلوا هم الجنود الرومانيون وموظفوهم وأتباعهم. يدلُّ على ذلك المعاهدة التي كتبها عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، وأهل اللُّد.

لقد بقي سكان الشام في أرضهم وبيوتهم؛ لأن العرب الفاتحين كان هدفهم تحرير أرض الجزيرة العربية، وتحرير الإنسان العربي.. لم يطردوا السكان من أرضهم، ولم يخشَ سكان البلاد بطش إخوانهم العرب فيهربوا.. وحمل العربُ الفاتحون عقيدة جديدة، فعرضوها على إخوانهم برفق، فآمن بها مَنْ آمن، وبقي على عقيدته المسيحيّة مَنْ بقي، لم يُضارّ أحد في دينه، أو ماله، أو أرضه. بل أزعمُ أن العرب المسلمين لم يعرضوا عقيدتهم على إخوانهم، وإنما رأي عربُ الشام إخوانهم القادمين على عقيدة، فاتبعوهم فيما يعتقدون، استحساناً لما رأوا وسمعوا، «وللناس فيما يعشقون مذاهبُ».

ولهذا يُقسم العرب المسلمون في بلاد الشام إلى قسمين:

الأول: وهو القسم الأكبر والأعظم 75٪: العرب الشاميون الذين أسلموا وهم في قراهم ومدنهم..

القسم الثاني: وهو الأقل: العرب المسلمون الفاتحون، ومَنْ هاجر من الحجاز واليمن بعد الفتح.

مَنْ أقدمُ وجوداً في الشام: العرب المسلمون، أم العرب المسيحيّون؟

سؤال لا يطرحه عالمٌ ذو نيّة حسنة، ولكنه سؤالٌ متداولٌ، فاضطررنا أن نجيب عنه؛ ذلك أن قصة الوجود «العربي الإسلامي» أو «الإسلامي العربي»، وقصة «الوجود العربي» بعامة المسلمين منهم والنصارى، موضع تشكيك أو نفي، في المصادر الإفرنجية الأوربية (الصليبيّة[1] بخاصة)، وفي المصادر اليهوديّة، ومَنْ رضي بقول هذين الفريقين؛ ممن ينتمون، أو يقيمون على أرض الشام؛ حيث يزعمون أن العرب المسلمين الذين يسكنون بلاد الشام، إنما هم أخلاف المسلمين العرب الذين جاؤوا من الحجاز واليمن عقب المدّ العربي الإسلامي.. ويريدون من هذا الزعم أن يثبتوا أنَّ عرب القرن الحادي والعشرين، هم سكان جُدد حلّوا محل الروم واليهود في بلاد الشام.

ونحن نجيب عن السؤال الذي جعلناه عنواناً لهذه الفقرة، فنقول: العرب المسلمون، والعرب المسيحيّون، عاشوا في زمن واحد، ونبتوا في زمن واحد، وليس أحدهما أقدم من الآخر. فقد عنونا هذا الكتاب: «الجذور التاريخيّة للعرب في بلاد الشام»، الشام من جزيرة العرب، والجذور التاريخيّة للعرب في بلاد الشام أقدم من النصرانية، وأقدم من الإسلام: العربِ باسمهم الأخير، والعرب الداخلين تحت عنوان «الجنس العربي».

كان العربُ قبل المسيحيّة والنبيين، فلما جاءَت النصرانية، آمن أهل الشام أو أكثرهم بها، وخصوصاً بعد أن صارت دين الدولة الرومانية الرسمي في منتصف القرن الرابع الميلادي.

---

(1) الصليبية: لا تساوي المسيحيّة، وإن كانت منسوبة إلى الصليب شعار النصارى. ولكن الصليبيّة نزعة عصبيّة أوربيّة تحرض على كراهية العرب والمسلمين، اتخذت من الصليب شعاراً، وبدأت مع الحروب التي شنّها الفرنجة الأوربيون على بلاد الشام. ولا يعترف المسيحيّون المؤمنون بهذه النسبة ولا يعترفون بأهلها، ويعدونها وصمة عار في تاريخ المسيحيّة. ولا زالت موجودة في أوروبا، واشتدت هذه النزعة في أمريكا، وزعيمها الروحي في القرن الحادي والعشرين جورج بوش.

فلما جاء الإسلام، اعتنق عدد كبير من هؤلاء المسيحيين الديانة الإسلامية. . فالمسؤول عنه: الأقدميّة العربية، وليست الأقدميّة الدينيّة؛ فانتقال العربيّ المسيحي، إلى الديانة الإسلاميّة، لا يفقده صفة الأقدميّة، وإن كان الإسلام جاء بعد المسيحيّة، كما لا يفقده حقّه في أرضه، ووطنه، ونسبته إلى العرب. ولذلك فإن مقولة: إن المسيحيين أقدم من المسلمين في بلد من بلدان الشام: كلمة حقّ يُراد بها باطل، بل يراد بها التلبيس والمغالطة: أما الحقُّ فهو أن المسيحيّة أقدم من الإسلام، وأما الباطل، فهو القول: إن كل عربيّ مسلم، جاء في الفتح العربي الإسلامي. وقد قررتُ قبل قليل أن العرب المسلمين في بلاد الشام، الذين كانون يسكنون الشام قبل الإسلام، أكثر من العرب المسلمين الذين جاؤوا مع الفتح وبعده.

وقد نقل ظفر الإسلام خان في كتاب «تاريخ فلسطين القديم» عن «دائرة المعارف اليهوديّة العامة» ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ: «فلسطين أصبحت بلاداً عربية، ليس فقط بسبب الفتح المحمدي، ولكن لأن العرب كانوا قد أتوا إليها مهاجرين منذ قرون مضت. . وكانت مسيحيتهم هرطوقية (غير مستقيمة) غير عميقة، ولذلك اعتنقوا الإسلام».

وما ينطبق على فلسطين ينطبق على بلاد الشام.

وقال: فالحقيقة الواضحة هي أن سكان (الشام) هم العرب منذ أقدم عصور التاريخ، وقد رأينا أن الأكثرية ليست عربية فحسب، بل إنَّ العرب قد حكموا البلاد ـ بوصفهم عرباً ـ بالفعل قبل الإسلام بثمانية قرون، وقبل المسيحيّة بقرنين، ومنذ ذلك الوقت ظلوا عاملاً أساساً في السياسات (الشاميّة) في صورة الأنباط، والإيدوميين والتدمريين، والغساسنة. . ولا شكَّ أن قادمين جُدداً قد حطوا رحالهم في الشام بعد الفتح الإسلامي.

وقال: إن الواقع السكاني أن الشعب العربي في بلاد الشام، ليس سليل أولئك القادمين الجدد مع الفتح في القرن السابع الميلادي، ولكن أغلبية السكان ـ المسلمين والمسيحيين ـ هم من أصل واحد ترجع صلته بالأرض بعيداً إلى تاريخ قديم جداً. .

وقال: ولكن الفاتحين والمستوطنين الذين جاؤوا وراء الانتصارات العسكرية والإدارة السياسية، لم يكونوا إلا أقلية صغيرة بالمقارنة مع جماهير السكان التاريخيين المتصلين في الوجود. . «تاريخ فلسطين» (157).

• أما اليهود، فإن كان لهم منزل وَحْي، فهو في بلاد الفُرس، وليس في الشام؛ ذلك أن كتابهم الذي ادعوا أنه «التوراة» نزل على «عزرا» في البلاط الفارسي، وربما نزل على «قورش» الملك الفارسي، وأملاه على «عزرا»، ولذلك يصفون «عزرا»بأنه «الكاتب» أو «الناسخ». . أما «توراة» موسى، فهم بعيدون عنها، ولا يُثبتون في توراتهم التي بين أيديهم شيئاً منها. .